العلم والأخلاق في الفلسفة الحديثة

الآلية وأثرها في نظرية ثوماس هوبز

سهيلة علي جواد

أستاذة الفلسفة المساعدة في قسم الفلسفة في كلية الآداب / جامعة بغداد

ان التطور الذي حققته العلوم المختلفة يجعلنا وسط حقول من المعرفة ، ارتبطت فيما بينها بروابط ضرورية تجعلنا ندرك ان المعرفة الإنسانية واحدة ، وان بناء الجسور بين انواعها المختلفة يعمق فهمنا لطبيعتها وغايتها والدور الذي نقوم به في رسم صورة واضحة للكون الذي نعيش فيه ، وللحياة التي نعيشها على كوكبنا الصغير [١] . ولا يقتصر مفهوم التطور على العلوم البحتة فحسب بل تعيداها الى العلوم الانسانية كعلم الاخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها .

وما زال العلم يحظى باهتمام فريق من الأخلاقيين ، والسبب في ذلك يظهر في ان العلم يبدو منذ القدم على شكل تقدم وتطور مستمرين ، ويمتاز بالمثابرة والموضوعية ، كما أنه يتمثل في القوانين الادغامية التي يخضع لها الجميع ، وكذلك فان هناك إعتقادا قديما بوجود علاقة بين تطور العقل وتطور الاخلاقية كما يرسم خطوطها سقراط " لا أحد سيء بإرادته " مما أدى بالكثير من المفكرين خلال العصور الى اقامة أخلاق علمية ، أو بتعبير آخر طبيعية من حيث كونها مبنية على معرفة تتزايد دقة والتي يعطينا إياها العلماء عن (الطبيعة) سواء في ذلك طبيعة العالم الفيزيائي أو طبيعة الانسان [٢] .

فهناك أخلاقيات متنوعة تحاول الارتكاز على معطيات العلم ، ويبدو ذلك واضحا في التأثر بالنظرية الآلية التي ظهرت في القرن السابع عشر ، وكذلك ما

نلمسه من تأثر الفلاسفة بالنظريات الطبيعية خاصة في مطلع القرن الثامن عشر ، وكما ظهر في التركيز على الناحية السايكولوجية منذ بايل ، وهيوم ، وهلفيتوس اوعند جون ستيورت مل في اواسط القرن التاسع عشر . وبظهور نظرية التطور القائمة على علم الأحياء ظهرت أخلاق أطباء كما عند دولباخ أو كابانيس ، وسبنسر وداروِن ونيتشه ، ولم تفقد هذه الفكرة قوتها في ايامنا هذه ، فقد ركز كل من متشنيكوف وفرويد على انه لا يمكن بناء أخلاق صحيحة الا بالاعتماد على معرفة الميول (السايكولوجية) التي تشكل الطبيعة الانسانية [٣] .

العلم والفلسفة :

لم تكن هناك تفرقة بين العلوم التي تقوم على الملاحظة والتجربة والعلوم التي تستند الى النظر العقلي او التفكير المجرد ، وان كانت العلوم الرياضية قد عرفت نواتها منذ اقدم العصور . ولكن الباحث يكاد لا يخطئ اذا قرر ان العلم قد اختلط بالفلسفة وتوجد مدلولهما حتى مطالع العصر الحديث . ففي اوربا بدأت نواة انفصال العلم الطبيعي عن الفلسفة على يد رواد البحث التجريبي ممن طالبوا بالكشف عن اسرار الطبيعة عن طريق المشاهدة ، فاذا تعذرت الملاحظة وجب اختراع الآلات والاجهزة التي تكره الطبيعة علىان تكشف عن اسرارها .

وما من شك ان الفلسفة تخدم غرضا علميا ، فالعلم يقدم الطرق لتصميم اجهزة فيزيائية وكيميائية ، بينما تزودنا الفلسفة بطرق لتوجيه سلوك الناس ، ومن ثم فأن الجانب الفلسفي يصل الى هدفه العملي بطريق مباشر اكثر مما يستطيع العلم بمعناه المحدد ان يفعله [٤] .

من الممكن القول ان العلاقة الأساسية بين العلم والفلسفة هي علاقة التكامل ، اذ ان الفيلسوف يشغل مركز جهاز الاستقبال العقلي لكل نتائج العلوم المتعددة .. وليس من الضروري للفيلسوف ان يعرف الاساليب الفنية الخاصة المستخدمة في كل علم ، بل ان اهتمامه ينبغي ان ينصب على النتائج العامة لا على المعلومات التفصيلية المؤدية الى هذه النتائج [٥] .

ولم تعرف التفرقة بين العلم والفلسفة الا تدريجيا ، اذ فتح كوبرنيكوس ، وكيلر ، وجاليلو ، مجالات جديدة في المعرفة الطبيعية ، ثم جاء فرنسيس بيكون ووضع أساس المنهج التجريبي الحديث فمهد بذلك لاستقلال العلم عن الفلسفة ، وفصل ديكارت بين الفكر والوجود الذي انتهى الى ثنائية نجم عنها تميز العلم الطبيعي عن الفلسفة ، اذ اصبح موضوع العلم الامتداد والحركة ، ولاح المنهج التجريبي الذي وضعت اسسه في ذلك العصر ، فاصطنعه العلم واستقل عن الفلسفة موضوعا ومنهجا [٦] . وينبغي ان نتذكر بانه لم يكن ، حتى وفاة نيوتن وبعده ، هناك خط واضح معترف به عامة للتمييز بين الفلسفة والعلوم الطبيعية وكان مصطلح (الفلسفة الطبيعية) هو الحد المشترك الذي يمكن أن يحيط بما نستطيع ان نطلق عليه ميتافيزيقا وما يمكن تسميته بالفيزيقا [٧] .

وربما كان الوصف الذي ورد في شجرة ديكارت الشهيرة هو أفضل وصف للوحدة بين العلم والفلسفة ، فالجذور تناظر الميتافيزيقا والمبادىء الجلية ، أما جذع الشجرة فيناظر الفيزيقا ، وتناظر الأغصان والثمار ما نسميه بالعلم التطبيقي ، لقد اعتبر ان النظام كله الذي يشمل العلم والفلسفة مثل ما نعتبره اليوم علما فقط ، وقد احس بان المبادىء الميتافيزيائية تجد ما يبررها في النهاية من خلال (ثمارها) وليس لمجرد إنها غنية عن البرهان ، وما نسميه اليوم علوما تطبيقية كان في نظره لا يتألف من الميكانيكا (الهندسة) فحسب بل كان يشمل الطب والأخلاق معا [٨] .

الآلية في العلم :

يتميز العالم الحديث عن العصور القديمة بما احرزه العلم من تقدم ونجاح ، فقد حقق اعظم انتصاراته في القرن السابع عشر [٩] . كما نتج عن الاهتمام المتزايد بالطبيعة والعلم والتشبث بالبحث ، والرياضيات والمنهج ، ان شهد القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر كونا جديدا يتخذ شكله ، فقد حدثت ثورتان كبيرتان في الفكر حطمت قيود عالم القرون الوسطى وما فرضه من تصنيف مرتبي للكيانات المختلفة تنتهي الى سلطة عليا . وجعلت مثل ذلك

التنظيم مستحيلا بالنسبة للعقل الانساني المتحرر .. هاتان الثورتان هما ثورة كوبرنيكوس وثورة ديكارت [١٠] .

يقول ريشنباخ ، اننا نؤرخ بداية ظهور العلم الحديث بعهد كوبرنيكوس وجاليليو ، فحين وضع كوبرنيكوس النظام المرتكز حول الشمس أرسى أُسس علم الفلك الحديث ، وقام في الوقت ذاته بالخطوة الحاسمة التي ادت الى تغيير مجرى التفكير العلمي الحديث وحررته من عناصر التشبيه بالانسان التي كانت تسود الفترات السابقة، أما جاليليو فقد أعطى العلم الحديث منهجه الكمي التجريبي [١١] .

وقد بدت ثورة كوبرنيكوس في أول الأمر وكأنها مجرد نقض لسلطة بطليموس ، ولكن ثورة ديكارت جاءت مسرعة في أعقاب هذا الاكتشاف وكانت ثورة أكبر أثراً ، اذ جعلت مصير أرسطو أسوأ من مصير بطليموس [١٢] .

كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣ م) :

توصل كوبرنيكوس الذي ينتمي الى القرن السادس عشر الى القول بمركزية الشمس بدلا من الارض ، وان للارض دورتين ، احداهما يومية حول نفسها والاخرى سنوية حول الشمس ، وما كان هاما في عمله هذا هو إنزال الأرض من منزلتها الهندسية البارزة [١٣] . مخالفا بذلك النظريات والمفاهيم الفلكية المتوارثة منذ عصر بطليموس والقائلة ان الارض مركز الكون الثابت ، لذلك فهو يمثل مرحلة انتقال بين فيزياء العصور الوسطى والفيزياء الحديثة [١٤] .

ترجع عظمة كوبرنيكوس الى كونه استطاع ان يشيد على هذه الفكرة نظاما كونيا متناسقا متكاملا ، اضفى على التصور البشري للكون مزيدا من النظام والمعقولية ، وفتح آفاقا جديدة أمام البحث العلمي والرؤية الفلسفية [١٥] . ومركزية الشمس فكرة زعزعت التصورات القديمة واحدثت ردود فعل قوية بحيث اطلق عليها الثورات الكوبرنيكية [١٦] كما انه وسع حدود العالم الى حد بعيد ، وأدخل المفهوم الجديد في ان الحركة نسبية تختلف بحسب من يلاحظها ، وأكد على إن العقل المستند الى الحساب الرياضي هو وحده ما يمكن ان نثق به .

كبلر ١٥٧١ - ١٦٣٠ م :

عالم فلكي له اهمية كبيرة بعد كوبرنيكوس ، اعتنق نظرية اعتبار الشمس مركزا للكون ، وكان انجازه المهم هو اكتشافه لقوانين حركة الأجرام السماوية [١٧] وانها لا تختلف عن القوانين الارضية ، وان حركاتها ليست كاملة ، أي ليست دائرية ، وان سرعتها ليست منسقة ، وكانت اهمية كبلر في انه أظهر نجاح طريقة البحث عن علاقات رياضية بسيطة ، وضرورة التثبت منها بالحساب والملاحظة .

جاليليو ١٥٦٤ - ١٦٤٢ م :

ان المرحلة التي تبدأ بجاليليو وتنتهي بلايبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) (تتمتع بشيء من الوحدة ، فهي تشهد ظهور العلوم الطبيعية واستمرار اقول تصورات القرون الوسطى عن المعرفة القائمة على مناهج ارسطو اقولا كاد ان يكون نهائيا) [١٨] .

كان جاليليو باحثا بالدرجة الاولى اكثر مما هو باني نظام فكري غير ان اثر أعماله في العقائد الإنسانية كان أعظم وأهم ، فقد حول الناس عن علم الكمالات والمراتب والغايات ، الى فكرة قانون كلي في الطبيعة [١٩] . كان عالما فيزيائيا حصر جهده بدراسة الظواهر الآلية والفلكية ، وتردد في تعميم طرقه ومبادئه ، وعلى نحو تدريجي غدا جليا ان العمليات الطبيعية يجب ان تعلل بقوانين الطبيعة وان يعبر عنها بحدود كمية ، وظهر ان مفتاح فهم الطبيعة يوجد في تطبيق الرياضيات ، وفي مناهج قياس دقيقة [٢٠] . واعتبر الرياضيات السمة الرئيسية للمنهج العلمي الذي يستطيع وحده تمكين الانسان من اكتساب معرفة صحيحة بالعالم الطبيعي [٢١] .

يبدأ العلم الحديث روحا ومنهاجا وممارسة مع جاليليو عام ١٦٠٠ [٢٢] ويرجع القول الى ان بداية العلم بجاليليو لان خيوط التطور مستمرة ومتواصلة من العصر الحاضر الى جاليليو ، ولان الفكر في القرون الوسطى الاوربية كان يخضع للمفاهيم الارسطية والتصورات اللاهوتية المسيحية . فكان قديما في

روحه ، قديما في اطاره ومناخه ومناهجه ، ولان العلم الحديث وليد الحضارة العربية ، وعنصر فاعل فيها ، والحضارة الاوربية لم تستكمل مقومات انطلاقتها الا في القرن السابع عشر الذي شهد الى جانب ذلك صراعا دينيا ودفاعا مستميتا عن اللاهوت المسيحي في غالب الاحيان [٢٣] .

بحث جاليليو في أهم فروع العلم الفيزيائي الا وهو الديناميك أو علم الحركة ، الحرارة ، المكبر ..... وأسهم اسهاما كبيرا في قيام الميكانيكا النظرية ، علاوة على كشوفه الفلكية . فلقد نظر الى الكون نظرة مادية ، وأعتبر العلم مادة وحركة ، والحركة خاضعة لقانون القصور الذاتي . فقد اوضح بالتجارب ان الحركة تسير بنفس السرعة وفي نفس الاتجاه (سرعة مستقيمة ومنتظمة) ما لم يكن هناك ما يزيد او ينقص منها أو يغير من اتجاهها . وبين بالتجربة ان الحركة تستمر بنفس السرعة كلما ازلنا العوائق الخارجية ، فمتى ما وجدت الحركة استمرت دون افتقار الى علة ، وضبط قوانين سقوط الاجسام وحركات البندول .

المادة في رأيه مجرد امتداد ، واعتقد ان كل تحول في الجوهر هو نتيجة تغير في ترتيب اجزاء الجسم بعضها بالنسبة الى بعض ، وهكذا لا يخلق شيء ولا يندثر شيء ، فالتغيرات الكيفية عبارة عن تغيرات كمية ، أو حركات ، وينقلب العلم الطبيعي الى علم رياضي ينزل من المبادىء الى النتائج ويسمح بتوقع الظواهر المستقبلية ، لذا كان مبدؤه قياس ما يقبل القياس ومعالجة ما لا يقبله حتى يصير قابلا له بصفة غير مباشرة [٢٤] . وهكذا أدرك أهمية تطبيق الرياضيات على البحث في ظواهر الطبيعة فجعل منها العمود الفقري لكل بحث علمي حقيقي [٢٥] .

فرنسيس بيكون ١٥٦١ - ١٦٢٦ م :

منذ بيكون أصبحت غاية العلم توسيع سيطرة الانسان على الطبيعة ... وأصبح العلم كذلك أكثر إنسانية وأقل الوهية . فخدم الطبقات التجارية والصناعية المتزايدة في القوة .. ولكي يتمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة عليه ان

يطيعها ليدرسها ويفسر حوادثها ، وهذا ما اريده ديكارت في سيادة الانسان على الطبيعة واستخدامها لسعادته [٢٦] .

عاش بيكون في بداية فترة التحول التي اشرنا اليها من قبل ، في عصر لم يتم فيه الانتقال بعد من القديم الى الحديث ، فكان طبيعيا ان يحمل تفكيره بعض معطيات القديم الى جانب الجديد الذي جند نفسه للدعاية له والتبشير به . وكان هدفه اصلاح أساليب التفكير وطرق البحث ، والهدف من المعرفة عنده السيطرة على الطبيعة لاغراضنا العملية . والجديد في آرائه انه ابرز اهمية التجربة والدعوة الى اصطناعها في البحث في ظواهر الطبيعة وتأكيده على عدم التسرع في استخلاص النتائج من الملاحظة والتجربة [٢٧] .

وكانت النزعة التجريبية التي ظهرت في دعوة بيكون الى تطبيق العلم في مجال الصناعات تمثل أول مظهر من مظاهر التحول الفلسفي الذي هيأ الأذهان لقبول فكرة الالية ووضع الاساس الفكري للعصر الصناعي الحديث ، ولكن لهذا التحول الفلسفي مظهرا آخر لا يقل تأثيرا عن هذا المظهر الأول في عملية التهيئة العقلية هذه ، هو النزعة التجريدية كما تمثلت في تطبيق العلم الرياضي على الأبحاث الطبيعية [٢٨] كما سيتبين في موقف ديكارت .

الآلية في الفلسفة :

في كتابة آراء نقدية كتب فؤاد زكريا مقالا عن الآلية سأحاول تلخيص بعض من فقراته استعين بها في توضيح أثر الآلية على الفكر الانساني عامة , يقول " ان الاتجاه واضح لاشك فيه ، وهو يدل دلالة قاطعة على ان الفلسفة في بداية العصر الحديث قد تلاءمت مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة وأصبحت متمشية مع الظروف المختلفة التي أخذت تلوح في أفق حياة الانسان الحديث . وان الحياة الجديدة لم تعد تحتمل الفصل بين مجال الفكر ومجال العمل أو بين العقل والواقع الطبيعي . . وفي ظل فلسفة تؤمن بأن العلم ينبغي ان ينفع الحياة ، وبأن غاية المعرفة هي السيطرة على الطبيعة ، أصبح الجو العقلي في بداية العصر الحديث مهيئا لظهور الآلة وبداية المرحلة الصناعية في التاريخ [٢٩] .

ولا شك ان الأدوات العلمية التي استعان بها علماء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت من أهم الوسائل التي ساعدت على توطيد دعائم النظرة التجريدية للأمور ، وبالتالي الى تمهيد الطريق عقليا للثورة الصناعية الحديثة .

ويمكن تقسيم هذه الأدوات بوجه عام ، الى أدوات مكانية وأخرى زمانية ، فالمكرسكوب والتلسكوب اداتان تعملان على تقريب المكان وتكبيره واختصار مسافاته ، وعلى مضاعفة حدة حاسة الابصار وتوسيع نطاق العالم المكاني الذي نتعامل معه ، ونتيجة لاستخدام هذه الادوات المكانية اخذ العقل الانساني يدرك لأول مرة ان الطبيعة المحيطة به امتداد هائل متجانس لا يوجد فيه تفاوت في القيمة أو المرتبة ، بين ما هو أعلى وما هو أدنى . . أي بين عالم السموات وعالم الارض ، بل ان المادة المنتشرة في الكون باسرة متشابهة وحركاتها كلها تخضع لقوانين واحدة يمكن التعبير عنها رياضيا (٣٠) .

أما الساعة فهي أداة زمانية أتاحت للإنسان ان يدرك الوقت بدقة لأول موة ادراكا دقيقا وان يقسمه الى فترات قصيرة محددة بدقة . والواقع ان اختراع الساعة الميكانيكية كان من أهم العوامل التي مهدت للثورة الصناعية في القرن الثامن عشر . . لانها ذاتها نموذج كامل للآلة المكتفية بذاتها ، التي تسير بكل دقة ونظام دون ان تحتاج الا الى أقل قدر من التدخل الخارجي ، بل أيضا لانها كونت في الناس عادات فكرية وعقلية جديدة تساعد على توطيد دعائم فكرة الآلية في الأذهان (٣١) .

وعندما أتيح لهذه الشروط الأساسية ان تتحقق اصبحت الآلية حقيقة ماثلة في الأذهان وأصبح الفكر الفلسفي الذي كان يحاربها بلا هوادة في العالم القديم ، يعمل من تلقاء ذاته على تقديم المبررات لها واعطائها المركز الذي تستحقه في مذاهبة النظرية ، وهكذا اصبحت الآلية سائدة حتى قبل ان تظهر الآلات ذاتها وكان من الواضح ان عقل الانسان يتهيأ لظهور نمط جديد من الحياة ، واسلوب جديد في الانتاج تقوم فيه الالة بالدور الاساسي (٣٢) .

ديكارت :

بدأ ديكارت حياته كعالم ، فقد بحث في السرعة والتسارع ، وصاغ قانون القصور الذاتي ، واهتم بالضوء ، وضبط قانون انكساره ، وانشأ الهندسة التحليلية واستعمل الحروف في الجبر بدل الاعداد واهتم بالعلاقات الرياضية العامة (٣٣) .

آمن ديكارت بأهمية المناهج الرياضي .. باعتباره وحدة الطريق الموصل الى اليقين ، وهدفه من تعلم الرياضة لم يكن اكتساب المعرفة بالاعداد والأشكال بل كان غرضه تعويد الذهن على استعمال الطريق الذي يوصل الى اليقين ، ومادام (العقل السليم هو اعدل الاشياء قسمة بين الناس) فبامكان الناس جميعا ان يحصل لهم ذلك ، فوحدة المنهج لديه ترجع الى وحدة الفكرة لا وحدة العالم .. فكل الذي اعجبه في الرياضيات هو وضوحها العقلي لا الصياغة الكمية لحوادث الطبيعة (٣٤) .

شيّد ديكارت نظاما فلسفيا متماسكا وعلما انطلق في بنائه بترتيب ونظام من الكوجيتو (انا أفكر اذن انا موجود) ثم استنتج من هذه الفكرة الواضحة معرفة بالعالم وخالقه واستخلص من هذا العلم التطبيقات التقنية التي كان يرمي من ورائها الى السيطرة على الطبيعة ، وهكذا وحد بين العلم والفلسفة .

تحتل فكرة الآلة مكانة عظيمة الأهمية في كتابات ديكارت .. فالمكان أو الامتداد حقيقة أساسية في العالم .. والحركة أصل كل تغير ، والرياضيات العلاقة الوحيدة بين اجزائه ، والجدير بالاهتمام ان هذا الايمان الديكارتي ، وهو يشبه ايمان الرواد في علمي الفلك والفيزياء ، فلقد جعل من الطبيعة آلة ، واستبعد الأهداف والمعاني الروحية معا ، وقد توصل الى فكرة البحث عن تفسير الاشياء جميعها تفسيرا رياضيا خالصا فقال (أعطني امتدادا وحركة ، لابني لك العالم) (٣٥) .

فالعالم عبارة عن امتداد متحرك حركة متصلة الى ما لانهاية ، وهي دائرية في العالم ، حركها الله منذ الخلق وشرع للحركة قوانين ومنها قانون القصور الذاتي ، وكان من فعل الحركة في المادة على مقتضى القوانين ان تكونت السماء

والأرض ..الخ . وان جميع ما هو موجود في العالم تكون بفاعلية الحركة في الامتداد [٣٦] .

وكل طاقة ارجعت الى طاقة الحرارة او الحركة ، وانحلت جميع الاختلافات الكيفية في العالم الى إختلاف كمية في الحجم والشكل وسرعة حركة اجزاء المادة ، ولا تخرج الكائنات الحية عن هذه القاعدة ، فقد أصبحت الحياة مجرد تغيرات كيميائية طبيعية ، وجميع الحيوانات آلات تتحرك من ذاتها ، وينطبق هذا على جسم الانسان الذي هو عبارة عن آلة طبيعية خالصة ، واستبعد عالم القرون الوسطى بصورة نهائية واستبدل بعالم الفيزياء الحديث [٣٧] .

طبق ديكارت قوانين الحركة على الجسم الحي أيضا ، فقد اعتقد ان في الأعصاب (أرواحا حيوانية) هي ادق اجزاء الدم واسرعها حركة ، بحركاتها تفسر جميع الأفعال الحيوية الجسمية ، ومثل هذه الأفعال مثل حركاتنا اللرادية كمد اليدين الى أمام في حركة السقوط مثلا . فجميع الأجسام آلات دقيقة الأجزاء كثيرة التعقيد ولكنها آلات على كل حال تعمل بالحركة ، والعالم في مجموعه آلة كبرى اوعالم الميكانيكا متحقق بالفعل [٣٨] .

وهكذا يمكن تسمية القرن السابع عشر في تاريخ الفلسفة (عصر العقل) حقا لان معظم الفلاسفة العظام في ذلك العصر تقريبا حاولوا ادخال صرامة البرهان الرياضي في جميع ميادين المعرفة بما في ذلك الفلسفة نفسها [٣٩] . فقوانين الطبيعة مثلا بسيطة ومنتظمة في آن واحد ، اذ يتم كل فعل من أفعالها في اقصر طريق وهذه الضرورة الأبدية في القانون رياضية في أساسها ، ومن هنا كانت الرياضيات وحدها هي طريق وصولنا اليها . وبسبب هذا التكوين الرياضي للعالم يمكننا ان نطبق معرفتنا الرياضية على التجارب .. فالرياضيات تكشف الاسرار الحقيقية في الطبيعة ، وحياة العالم الاقتصادية بكاملها طبيعية كمية رياضية [٤٠] .

مكتبة قسم اللغة العربية كلية الآداب

اثر الالية في فلسفة ثوماس هويز :

عاش هويز في عصر حاول مفكروه اعادة اكتشاف الكون والانسان بمناهج جديدة تعتمد على العقل ، وقد انعكست هذه المحاولات على فلسفته بشكل واضح ، فهو من اوائل الفلاسفة المحدثين الذي حاول ان يقيم علاقة وثيقة بين النظرية السياسية وبين مذهب حديث تماما في الفكر ، ويستعين بهذا المذهب لتفسير جميع حقائق الطبيعة ، بما فيها سلوك الانسان على أساس المبادىء العلمية (٤١) .

عكس هويز روح العصر الذي انتسب اليه ، فجعل من مذهبه سلسلة من الاستدلالات الدقيقة التي حاول فيها ان يتدرج بطريقة رياضية صادقة ، ولجأ الى تطبيق مبادىء العلم الجديد الذي ظهر في القرن السابع عشر (علم كبلر وجاليليو) على الوجود بأكمله ، او الحقيقة الخارجية ككل . ومعنى هذا ان الفلسفة العامة قد أصبحت على يد مفكري القرن السابع عشر هي العلم الطبيعي نفسه وقد اكتسب صيغة كلية شاملة . ونادى بان العلل الوحيدة انما هي العلل الآلية أو الميكانيكية (٤٢) .

ان طبيعيات هويز ليست دراسة لقوانين الطبيعة الخارجية كما هي الحال لدى جاليليو وديكارت ، وانما هي نظرية ميكانيكية في الادراك الحسي وفي الذهن ، قصد منها شرح كيف ان الصور الصادرة عن الجسم تؤثر بحركة موضعية في الارواح الحيوانية فتؤلف حركاتها بدورها الاحساسات والتصورات والأحكام . وعلى هذا فعندما سيضيف الى طبيعياته – تحت تأثير جاليليو وديكارت – دراسة المعاني العامة للجسم والحركة في القسمين الاولين من كتابه (في الجسم) فلا بد ان نلاحظ ان قصده من ذلك ليس التمسك بتصور شامل للكون بقدر ما انه التمهيد لنظريته الآلية في الذهن (٤٣) . فيمكن تسمية فلسفته الطبيعية ، حسب ما هو في كتابه الجسم ، فلسفة حركية ، فهويز فيلسوف الحركة مثلما ديكارت فيلسوف الامتداد (٤٤) .

وجد هويز نفسه امام علم استنباطي دقيق حين وقع كتاب (هندسة اقليدس) بين يديه ، ومنذ تلك اللحظة لم يتخل هوبز عن الاهتمام بالرياضيات . ان الذي راقة فيها هو المنهج الهندسي من حيث هو فن استدلالي ، ولا شك ان حرصه على الاستفادة من المنهج الرياضي قربه من ديكارت وابعده عن بيكون (٤٥) .

وفي الثلاثينات من القرن السابع عشر ذهب هوبز الى القارة الاوربية حيث تعرف على الأوساط العلمية ، فالتقى بجاليلو واصبح من الانصار المتحمسين للعلوم التجريبية حديثة النشأة ، وأعتنق المذهب المادي المنهجي وجرى بحماس وراء امكانية التوصل الى فهم علمي جديد للانسان استنادا الى المادة فحسب (٤٦) . وتحددت نقطة البداية في تفكيره الفلسفي عندما كان يختلف على الاوساط العلمية في باريس واتيحت له الفرصة للاستفادة من آراء جاليلو ويقال ان جاليلو نفسه هو الذي اوحى أليه بفكرة تطبيق المنهج الهندسي على علم الاخلاق اسوة بما كان متبعاً في علم الطبيعة أو الفيزياء (٤٧) .

أيد هويز التحليل السيكولوجي السائد في القرن السابع عشر للطبيعة البشرية ، الذي توصل الى ان الإنسان جزء لا يتجزأ من النظام الطبيعي ، ليس جسمه فقط بل حياته الواعية والعقلية بكاملها ايضاً ، واكد هوبز أنه من الممكن اقامة علم يعتمد على ملاحظة الانسان لعمليات الفكر التي تجري داخل عقله وتحليلها ، أي الملاحظة الداخلية (٤٨) .

العالم في فكر هويز :

يتفق هويز مع جاليلو وديكارت في التصور الذي يجعل من العالم مادة وحركة ، فالعالم بما فيه الإنسان يتألف من أجسام ، والجسم جوهر مادي (الجسم هو حالة استقلال عن فكرنا وما يشغل حيزا أو يمتد في جزء من مكان) . وليس ثمة جواهر لا مادية ومعنى ذلك أنه لا أثر في العالم لشيء أسمه النفس أو الروح . فالنظرية الفلسفية التي يقدمها لنا ليفسر بواسطتها العالم كله ، من المادة الجامدة في الطبيعة الى الكائنات الحية ، الى الانسان بفكرة واحدة هي المادة

المتحركة ، فالعالم كله يتألف من اجسام مادية في حالة حركة من السماء الى الأرض [٤٩] .فليس هناك أثر للثنائية في كل تفسيراته للأشياء ، فهو مادي ، أحادي . ولقد ساعدته ابحاث هارفي لاستكمال هذه الصورة المادية الشاملة . وتحت تأثير هارفي استطاع ان يفسر الحياة تفسيراً مادياً ويرد الفسيولوجيا الى علم الطبيعة ، ومن هنا ذهب الى ان الحياة نفسها ليست سوى حركة ، وأصل الحياة موجود في القلب والحياة هي حركة الأعضاء [٥٠] .

لقد ميز هويز بين كيفيات أولية وكيفيات ثانوية في الاجسام المادية ، وهو بذلك يتفق مع جاليلو الذي أثار هذه القضية في كتابه (المحاورة) علم ١٦٢٣م . وكذلك يتفق مع ديكارت في القول بالكيفيات الأولية والكيفيات الثانوية . . فالأولية تتعلق بالشكل والحجم والحركة والسكون ، وهي تلك الكيفيات التي لا تنفصل من الاشياء لأنها ملازمة لها ، اما الكيفيات الاخرى كالحرارة والبرودة واللون والطعم..الخ فهي ليست سوى اسماء نطلقها على الاشياء لما تثيره فينا من احساسات ، وهي لا تقوم في الاشياء بل في الذوات المدركة ، ولا وجود لها بدونها ، وهذه هي الكيفيات الثانوية ، الا ان هناك فرقا بين هويز وديكارت ، فإن هويز يجعل الامتداد والشكل صفتين للجسم اما بقية الخصائص فهي ثانوية ، فالحركة والسكون هما كاللون والصلابة والطعم خواص عارضة أو كيفيات ثانوية [٥١] .

الحركة :

فهم طبيعة الحركة مسألة اساسية لفهم طبيعة العالم كما يراها هويز ، والحركة في العالم ليست من نوع واحد ، وانما هناك حركة في الجسم الخارجي وهي تشمل الكون كله ، وحركة داخلية تقع في اجسامنا [٥٢] . وتقف الحركة وراء كل تغير او تحويل بل في الواقع ان الحركة هي نفسها تغير ، ومن الواضح ان هذه الفكرة نتيجة مترتبة على مذهبه المادي ، فاذا كان كل ما يوجد وجودا حقيقيا فهو جسم ، واذا كان الجسم ممتدا أو مكاني الطابع ، فان التغير الوحيد الممكن هو

التغير في المكان أعني الحركة ، ولا يمكن ان يكون هناك سبب آخر للحركة غير الحركة ذاتها [٥٣] .

كانت الحركة عند هويز كشفا لطبيعة الكون نفسه ، كما انه لم ينظر الى الفلسفة بوصفها علما صوريا مجردا ، بل بوصفها كشفا لصورة الحركة . لذلك كان ضروريا معرفة النسب الرياضية وخصائص الخطوط والاشكال لكي يتسنى معرفة الحركة وطرقها ودرجاتها [٥٤] .

تأثر هويز في تصوره للحركة بالتصورات العلمية الجديدة التي سادت القرن السابع عشر ومنها النظرة الآلية لاسيما عند جاليلو ، فالحركة عند حركة آلية تماما وهي بغير غاية وهي ايضا متجانسة ، ويقصد بها تغير في المكان ، كما وانها تحكم ظواهر الكون كله [٥٥] .

تقسم الحركة الى نوعين ، حركة خارجية وصفها جاليلو ووضع لها قوانينه الشهيرة لا سيما قانون القصور الذاتي . واخرى داخلية وهي التي لا نراها عادة كالحركات التي تحدث داخل الكائن الحي ، وقسم هذه الاخيرة الى نوعين ايضا أسمى واحدة بالحركة الحية ، وأسمى الثانية بالحيوانية وسنوضح ذلك .

الحركة وأثرها في الادراك الحسي :

يعتقد هويز ان الادراك الحسي من نفس نوع الحركة .. ذلك لان الموضوعات الخارجية تعمل على اعضاء الحس فتقوم بضغط مباشر يتجه داخليا نحو المخ والقلب ، وواضح ان الموضوع الخارجي عبارة عن مادة متحركة ، فعندما يلامس عضو الاحساس في الجسم فان هذا يؤدي الى إحداث تغيرات في حركة العضو ، وهذه التغيرات تؤدي بدورها الى تغيرات في حركات الاعصاب ، وتواصل الحركة سيرها نحو المخ والقلب ، ولما كان للقلب جهاز خاص ذا حركة قوية ، فان الحركة الجديدة القادمة من خارج الجسم تلقى مقاومة ، ويصف هذه المقومة بانها ضغط مضاد يقاوم الضغط القادم من الخارج ، او هي محاولة من القلب للدفاع عن نفسه [٥٦] .

ينشأ الاحساس اذن من ضغط الاجسام الخارجية المتحركة على عضو الحس .. تتجه الحركة نحو الداخل .. تصل هذه الحركة الى المخ اولاً ثم الى القلب حيث تلقى مقاومة ، لان الذي يوجد في الداخل ايضاً مادة متحركة ، فحركة المقومة تتجه نحو الخارج ، وهذه الحركة هي الاحساس ، فالاحساس اذن حركة ، ولما كان قانون العضو الذاتي عند جاليلو يقول ان ما يتحرك سيظل متحركاً باستمرار ما لم يكن هنالك جسم اخر يجعله يركن السكون . فان معنى ذلك ان حركة الحس سوف تستمر حتى بعد زوال الموضوع الخارجي . وهذه الحركة المستمرة تتناقص بالتدريج نظراً لضغوط اخرى هي " المخيلة " ، فهي كالرياح المتحركة التي تعصف بامواج البحر فتحركها ، وعندما تهدأ هذه الرياح فان الأمواج تستمر في الحركة لوقت ما متناقصة تدريجياً حتى تهدأ ، وذلك ما يحدث تماماً في حركات الاجزاء الداخلية من جسم الانسان عندما يرى او يسمع بعد ان يختفي موضوع الرؤية او مصدر الصوت (٥٧) .

لا يكفي القول بان الاحساس هو نقطة البدء في كل معرفة بل يضيف هوبز الى ذلك ان الاحساس هو أيضا في ذاته حركة من حركات المخ ، وليس هناك فكرة واحدة لا يمكن ردها في خاتمة المطاف الى هذا الحس او ذاك . ان ما يوجد حقاً حينما تكون لدينا احساسات او مشاعر انما هو الحركة والحركة وحدها .. فالاحساس هو الاصل في كل علم وليس هناك في العالم الا الحركة ، حركة تحدث خارجنا وأُخرى تحدث فينا .. والانسان في نظر هوبز ليس الا مجموعة من الحركات ، ومضمون الاحساسات عمليات ظهور للحركات في المخ والاعصاب . وهكذا أقام هوبز كل تصوره للوجود على قوانين الحركة الميكانيكية (٥٨) .

الآلية ونظرية هوبز الاخلاقية :

لا يزال الحدث الاخلاقي يفرض نفسه على الكائن البشري في كل زمان وفي كل مكان . وما زلنا نقابل الخير والشر ، والجيد والرديء والفضيلة والرذيلة .. الخ . هذه المقابلة تمارس علينا ضغطا من الخارج منذ نعومة اظفارنا ..

فتوحي الينا بما يجوز فعله وما لا يجوز .. وتمارس ضغطاً آخر من الداخل يبدو على هيئة مشاعر تتسم بالواجب والمسؤولية وصحوة الضمير .

والحياة اليومية تضع أمام كل شخص مواقف اخلاقية تريد لها حلا آنيا على الرغم من تعقدها ، ومن مظاهرها المتناقضة في الغالب . والفهم المكتمل للحدث الاخلاقي يفترض القيام بدراسة للمفاهيم التي عبرت عن هذا الحدث بالتعاقب عبر آلاف من الأعوام . وكما نجد الدراسات العلمية تنهج الى تحديد المبادئ الاساسية للعلوم عن طريق الدراسات التاريخية للنظريات قديمها وحديثها ، فكذلك ينبغي ان تتجه الدراسات الاخلاقية الى ايضاح الجهود الانسانية التي بذلت عبر المذاهب الاخلاقية في سيرتها منذ ولادتها وحتى يومنا هذا .

ان الاختيار الذي وقع على مذهب هويز الاخلاقي ، يعتبر نموذجا واضحاً لتأثير الآلية في المذهب الاخلاقي ، او بالاحر نموذجاً لتأثير العلم في الاخلاق ، واضافة الى ذلك فان هويز يعتبر واضح اللينة الأولى للنظرية الاخلاقية في الفلسفة الاوربية الحديثة .

في الباب الأول من كتابه (التنين) يتحدث هويز عن الانسان ، حيث يقيم الدعائم السيكولوجية التي ارتكزت عليها فلسفته الاخلاقية [٥٩] . ففي تصوره للحياة الاخلاقية والاجتماعية اعتقد ان غريزة حب البقاء غريزة اساسية تتحكم في الوجود الانساني كله .

ومن هنا ارتبط مفهوم اللذة والألم بطبيعة حياتنا العضوية .. ويتميز الكائن الحي عموماً بسعيه المستمر للبقاء وللمحافظة على حياته .. ومن المرجح ان هويز هنا يربط هذه الخاصية عند الكائن الحي بمبدأ جاليليو في القصور الذاتي .. فالقاعدة التي تكمن وراء كل السلوك هي ان الجسم الحي مدفوعاً بالغريزة الى المحافظة على حيويته او زيادتها . والمحافظة على الذات معناها مجرد استمرار الوجود البيولوجي الفردي . والخير هو ما يؤدي الى هذه الغاية والشر هو ما يسفر عن الأثر المضاد .. فالحياة سعي دائب وراء وسائل الوجود المستمر ..

والرغبة في الأمن لا يمكن فصلها عن الرغبة في القوة لأن كل درجة من الأمن تتطلب مزيدا من ضمان توفيرها [٦٠] .

ان الرغبة في البقاء والمحافظة على الحياة من ناحية ، والنفور من الموت من ناحية اخرى ، هما المحركان للسلوك البشري كله .. وما دامت اللذة علامة على حيوية عالية ، والألم علامة على فقدان هذه الحيوية فان ذلك يتضمن الرغبة في اللذة والنفور من الالم ، ومن هنا فان كل انسان يتجه نحو المحافظة على ذاته وتقويتها فحسب [٦١] .

فكل ما يشبع فينا تلك الغريزة يسبب لنا ضربا من اللذة وكل ما يعارض لدينا تلك الغريزة لابد من ان يولد لدينا شعورا بالألم ومعنى هذا انه حينما تكون الحركة ملائمة لمجموع وظائفنا الحيوية فأنها تحدث فينا اللذة على حين انها تولد لدينا في الحالة المضادة نوعاً من الاحساس بالألم ، واللذة تولد الرغبة والرغبة هي حركة انبساط نبحث فيها عن بعض الموضوعات السارة ، في حين ان الالم يولد النفور والنفور بمثابة حركة تتراجع فيها عن بعض الموضوعات الاليمة [٦٢].

ويربط هويز بين اللذة والخير ، وبين الالم والشر ، وان الخير والشر لفظان عامان نستخدمهما للدلالة على الموضوعات المرغوب فيها والموضوعات غير المرغوب فيها . فليس هناك خير مطلق او شر مطلق وانما كل شيء نسبي الخير والشر . فالخير يرتبط بما هو نافع لنا والشر يرتبط بما هو ضار لنا .. فالمنفعة هي القاعدة الأخلاقية الوحيدة .. وكل العواطف والاهواء ترتد دائماً في النهاية الى غريزة المحافظة على البقاء وارادة القوة او حب السيطرة .. ومهما تنوعت الأهواء البشرية فأنها جميعا تخفي وراءها ضربا من الشعور بالانانية أو حب الذات وحتى الشفقة فهي في صميمها عاطفة أنانية لأن المرء عندما يرى آلام الآخرين ويشفق عليهم انما هو يتصور ان هذه الآلام قد تلحق به أيضا فيتألم سلفاً ويشفق على نفسه من هول ما سينزل به من مصائب في المستقبل . وكذلك الاحسان او المحبة فهي ايضاً عواطف انانية وراءها القوة وحب السيطرة [٦٣] .

مصدر اللذة والألم :

في الفصل السادس من كتاب (التنين) يشرح هويز مصادر اللذة والألم تحت عنوان (البداية الداخلية للحركات الارادية التي تسمى عادة بالانفعال والأقوال التي تعبر عنها) ويقصد (الاقوال) التسميات التي تطلق عادة على هذه الانفعالات [٦٤] .

يرفض هويز آية نظرية تدور حول النفس بوصفها جوهرا ماديا يتميز عن البدن ويقوم بذاته ، لقد ألغى النفس كجوهر مستقل قائم بذاته فكل ما يوجد وجوداً حقيقياً فهو جسم ، اما الفكر والتصورات فهي ليست اشياء حقيقية وانما هي حركة في جوهر داخلي هو الدماغ ، والعقل نفسه مادة وان التفكير ان هو الا حركة [٦٥] .

وبعد ان وضع الأساس المادي لكل شيء في العالم ، وبعد ان نفي كون النفس جوهرا ، نحاول ان نفهم موقفه وتفسيره لكيفية حصول اللذة والألم أو بالأحرى فهم موقفه من العواطف والانفعالات وعلاقتها بالحركة .

كما قلنا سابقا ، ان في الحيوان نوعان من الحركات الخاصة ، الأولى تدعى الحركة الحية وهي موجودة في جميع الكائنات الحية ، تبدأ وتستمر من غير انقطاع طول حياة الحيوان ، وتتألف من العمليات البيولوجية مثل جريان الدم ، النبض ، التنفس ، التغذية .. الخ . وهي حركات لا تحتاج الى عون من الخيال . اما النوع الثاني فيطلق عليه هويز اسم الحركة الحيوانية ، وتسمى أيضا بالحركة الارادية ، وهي خاصة بالحيوان فقط كما في الكلام ، المشي ، تحريك عضو من اعضائنا [٦٦] . ومعنى ذلك ان للحيوان ارادة مثل ما للانسان . وهذا النوع يأتي من الخارج ويستمر حتى المخ ويحدث فيه صوراً ذهنية بل انه يؤثر أيضا في حركات القلب الحية ، فاذا سارت حركة الدم ولم يكن هناك ما يعيقها ظهر نوع جديد من الاحساس أطلق عليه هويز أسم اللذة ، أما اذا كانت هناك عوائق ظهر احساس آخر هو الألم . ويعتقد هويز بوجود نوعين من اللذات ، حسية وذهنية ، ويفرق بينهما بقوله ان الوظيفة الأساسية للأولى هي المحافظة على بقاء الفرد

واستمرار النوع ، اما الثانية فلا توجد علاقة واضحة بينهما وبين أي جزء من اجزاء الجسم ، وفضلا عن ذلك فهناك فارق أساسي آخر بينهما هو ان اللذات الحسية تتطلب حضور الموضوع المرتبط بهذه اللذة في حين ان اللذات الذهنية لا تتطلب مثل هذا الحضور .

ثم يتحدث هويز عن ما يسميه (الجهد) ويقصد به البدايات (٦٧) الصغيرة للحركة الارادية داخل جسم الانسان قبل ان تظهر في المشي او الكلام وغير ذلك من الافعال الظاهرة . فعندما يتجه هذا الجهد نحو شيء يسببه فأنه يسمى اشتهاء او رغبة . وعندما يبذل الجهد للابتعاد عن شيء ما يسمى بالنفور وكما يقول هويز انه اخذ كلمتي الاشتهاء والنفور من اللغة اللاتينية وهما معا تدلان على الحركة ، الأولى تدل على الاقتراب من ، والثانية تدل على الابتعاد عن ، وهكذا تصبح اللذة والألم تعبيرا عن وعينا الداخلي للحركات الحية التي تسير سيرا مريحا فتسمى متعة او لذة وهي ليست شيئاً آخر في الحقيقية سوى الحركة حول القلب ، اما اذا اعيقت هذه الحركة وتوترت أجزاء الجسم حدث ما نسميه بالألم (٦٨) .

ويعتمد هويز في تفسيره للذة والألم على فكرة الأرواح الحيوانية وهي جزيئات رقيقة في الدم تتحرك بسرعة خلال الاعصاب وتوصل ما بين المخ والعضلات فتسبب الحركة فاذا اتجهت نحو أشياء سارة كانت اشتهاءً واذا ابتعدت عن أشياء مؤذية كانت نفورا ، ومعنى ذلك انه بفضل هذه الارواح الحيوانية تيسير تحريك اعضاء الجسم حركة ارادية او حيوانية ، وتتلقى آثار الأشياء الخارجية (٦٩) .

وهكذا فأن اللذة والألم هما المبدآن الرئيسيان اللذان ترتكز عليهما الحياة النفسية بوجه عام ، وكل شيء في طبيعة الانسان كالميول والرغبات وما اليها انما تهدف في نهاية الآمر الى تحصيل لذة واجتناب آلم . ولما كان الانسان ميالا بطبعه الى الابقاء على حياته (غريزة حب البقاء) وتجديد القوى الحيوية فيه فهو اذن ميال بالضرورة الى تحصيل اللذة واجتناب الألم (٧٠) .

المراجع والهوامش

(١) خليل ، ياسين : منطق المعرفة العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٧ .

(٢) غريغوار ، فرنسوا : المذاهب الاخلاقية الكبرى ، ترجمة قتيبة المعروفي ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥ .

(٣) غريغوار ، فرنسوا : المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٤) فرانك ، فيليب : فلسفة العلم ، ترجمة علي علي ناصيف ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص٦٦ .

(٥) مير ، هنتر : الفلسفة انواعها ومشكلاتها ، ترجمة فؤاد زكريا ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٨ - ٥٠ .

(٦) الطويل ، توفيق : الفلسفة الخلقية ، نشأتها وتطورها ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٧) هامشير ، ستيورات : عصر العقل ، ترجمة ناظم الطحان ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ١١ .

(٨) فرانك ، فيليب : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٩) رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ترجمة محمد فتحي الشنيطي ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥٧ .

(١٠) راندال ، جون هرمان : تكوين العقل الحديث ، ج ١ ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٥٨ .

(١١) راشينباخ ، هانز : نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة فؤاد زكريا ، القاهرة ، ص ٩٤ - ٩٥ .

(١٢) راندال ، جون هرمان : تكوين العقل الحديث ، ص ٣٥٨ .

(١٣) رسل ، برتراند : تاريخ الفلسفة الغربية ، ص ٥٩ .

(١٤) اغروس ، روبرت : العلم في منظوره الجديد ، ترجمة كمال خلايلي ، الكويت ، ١٩٨٩ ، ص ١٥٨ .

(١٥) الجابري ، محمد عابد : المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي ، ج ٢ ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٧ - ٨ .

(١٦) الجابري ، محمد عابد : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(١٧) رسل ، برتراند : مصدر سابق ، ص ٦٤ .

(١٨) هامشر ، ستيورات : عصر العقل ، ص ٩ .

(١٩) راندال ، جون هرمان : تكوين العقل الحديث ، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٢٠) هامشر ، ستيورات : عصر العقل ، ص ٧ .

(٢١) اغروس ، روبرت : العلم في منظوره الجديد ، ص ٩٩ .

(٢٢) الجابري ، محمد عابد : المنهاج التجريبي ، ص ١١ .